

الشيخ اللغوي محمد رضا الشيبلي ومجمع دمشق

أ. د. ممدوح خسارة(*)

لا يَسَعُ المرءَ إلا أن يَتملكه التَهَيُّبُ، وهو يتحدث إلى حَفْدَة علماء العربية الأُوَّل، وكأني في حضرة أجدادهم القُدَامى الذين اشتاروا لنا أطيب لغتنا نقية رطبة من أفواه القبائل التي يُعْتَدُّ بلغتها، فدَوَّنوا فرائدها، وقَيَّدوا شواردها، وجمعوا أشاتها في رسائلهم وكتبهم، ثم قَعَّدوا عليها في نَحْوهم، وأودعوها معاجمهم، وأغْنَوْها في مترجمات بيت حكمتهم، حتى وصلت إلينا على أكمل صورة تصل بها لغةٌ إلى أبنائها. فبكل قطرة عرق سالت من جباههم السمر في هواجر صحاريننا، وبكل قطرة مداد هريقت من محابريهم، وبكل قطرة زيت أضاءت مسارحهم، ننعم اليوم بهذا اللسان العربي المبين، لسان التنزيل الكريم، بفضل جهود آبائكم في البصرة والكوفة وبغداد الذين هَيَّأهم الله وباركهم، ليحفظ بوساطتهم - بعد وعده الصادق - الذكر الحكيم.

صحيح أن عربيتنا وعقيدتنا حُفِظتا وخلدتا بالوعد الإلهي الصادق:
﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ولكن الله سبحانه إذا أراد شيئاً

(*) البحث الذي قدّمه عضو مجمع اللغة العربية بدمشق الدكتور ممدوح خسارة ممثل المجمع في مؤتمر الاحتفاء بالذكرى الخمسين لوفاة الشيخ المجمع محمد رضا الشيبلي الذي أقامه مجلس النواب العراقي والمجمع العلمي العراقي ببغداد في ٢٢/١١/٢٠١٧ م.

هياً له أسبابه. فطوبى لمن اختصه الله ليكون سبباً من أسباب حفظ قرآنه الكريم ولسانه العربي المبين.

وإذا كان من أجدادكم، وهم أجدادنا، من اختصهم الله بهذا الفضل العظيم، فإن هذا الفضل سرى من الأجداد إلى الأحفاد يتوارثونه كابراً عن كابر من عهد الفراهيدي وأصحابه إلى زمن الشيبلي ورُصَفائه، فجزاهم الله عنا خير الجزاء وأتمّه.

أفلا يُعذّر طالب علم مثلي إن هو تهَيَّب عبقرية المكان وأهله، وإن هو انتشى بعبقهما، إنها بغداد بعبقريتها وعبقها.

أولاً - الشبلي في دمشق ومجمعا:

لا يجمل بمثلي أن يتحدث عن نشأة الشيخ محمد رضا الشبلي رحمه الله وسيرته الذاتية بينكم، فأكون كحامل التمر إلى هجر، ولكن مما يجدر ذكره عندي أن العلامة الشبلي، كان قد سافر إلى الحجاز بعد الحرب العالمية الأولى، فعَلَ كثير من العروبيين لذلك العهد، وعاد إلى بلده بطريق دمشق بعد أن أقام فيها سنة كاملة، قبل أن يعود إلى العراق سنة (١٩٢٠)^(١). والعلماء إذا دخلوا مدينة أفادوا واستفادوا، فكان أن اجتمع العالم الشبلي فيها بنفرٍ صالح من علماء الشام وفلسطين ولبنان والعراق من المعنّين بالقضايا القومية والثقافية والسياسية - والمرء يَأرِزُ إلى أهله - إذ التقى بأبيه لغويّاً وأبنائها كالسيد محمد رشيد رضا، وعبد القادر المغربي والأستاذ محمد كرد علي وعبد المحسن الأمين، وكان يقيم معهم ونظرائهم ندوات أدبية ولغوية في المدرسة المحسنية التي ما زالت تنهض برسالتها التربوية، وفي النادي العربي الذي كان أبرز معالم دمشق الثقافية والقومية لذلك

(١) الزركلي - الأعلام ٦: ١٢٧.

العهد، وفي مكاتب بعض الصحف الدمشقية، وفي دور الكتب بل وفي ردهات الفندق حيث كان يقيم^(٢).

ولعل مرور نحو نصف قرن على ذكريات يستعيدها قد أنستّه بعض التفاصيل عن المكان والزمان، إذ يقول عن مثاقفاته في دمشق: «وكانت تقام في النادي العربي حفلات أدبية، وتُعقد اجتماعات سياسية، هذا ولمّا ينشأ المجمع العلمي العربي بعد، وإنما أنشئ بعد مبارحتي الشام بأكثر قليلاً من سنة واحدة، ومعنى هذا أن النادي أقدم قليلاً من المجمع من حيث التأسيس»^(٣). ومعروف أن المجمع العلمي العربي بدمشق أنشئ في حزيران (١٩١٩م)، أي قبل ما ذكر بسنة، وهذا ما حمل مجلة مجمع دمشق على أن تحشّي بأن المجمع أنشئ سنة (١٩١٩).

ووقع مثل هذا عندما قال رحمه الله عن ذكرياته فيها: «كان ذلك سنة (١٩٢٠م). أي قبل أكثر من أربعين عاماً، حيث كنت نزيل الشام في فندق يطل على شارع بغداد»^(٤)، مما جعل مجلة المجمع تحشّي بأنه في سنة (١٩١٩) لم يكن شارع بغداد قد افتتح، ولعله كان يريد أن يقول: (شارع النصر)، فهو قد ذكر أن في نهاية الشارع محطة الحجاز. وأنا أقول: إن هوى قلبه الذي كان في بغداد هو الذي جعله يسمّي شارع النصر باسم شارع بغداد، أليس هو القائل:

بيغداد أشتاق الشام وها أنا إلى الكَرْخ من بغداد جُمّ التشوُّق

(٢) محمد رضا الشبيبي - الشيخ عبد القادر المغربي جوانب مجهولة من حياته - مجلة

مجمع دمشق - مج ٤٠: ٤٥٢.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

وأليس هو الذي عنون قصيدته القافية هذه بـ (الهيام بين العراق والشام)^(٥)؟ على أن شارع بغداد الذي افتتح بعد أكبر بكثير من شارع النصر. وعلى أي حال فبغداد والنصر لا يفترقان.

وقد أتاحت له زيارته لدمشق وإقامته فيها أن يتعرف به أعضاء مجمعها وعلمائها عن كثب، وأن يدركوا قدراته العلمية واللغوية العالية، وشمائله الخلقية النبيلة، فكان أن انتخبوه عام (١٩٢٣) عضواً في المجمع العلمي العربي كما كان يسمى آنئذ. فهو لذلك يعدُّ من رجيل المؤسسين الأول للمجمع.

كان الشيبلي وثيق الصلة بمجمعه، يتجلى ذلك في مشاركته في فعالياته الأدبية والثقافية، وفي بحوثه التي يغني بها مجلة المجمع، وفي تهاديها الكتب والمطبوعات.

(١) مشاركته في فعاليات المجمع:

أسهم الشيبلي في فعاليات المجمع الثقافية والأدبية، وأهمها مشاركته في (المهرجان الألفي لأبي الطيب المتنبي) الذي أقامه المجمع من (٢٣-٢٩ تموز ١٩٣٦)، والذي شارك فيه أيضاً نخبة من شعراء الوطن العربي ومنهم مواطنه الأستاذ الشاعر (معروف الرُصافي). وقد ألقى شقيق الشاعر السيد حسن نيابة عنه قصيدته الدالية التي بلغت واحداً وثلاثين بيتاً، عنوانها (ذكرى شاعر) ومطلعها:

يا قلبُ عادك من دمشقٍ عائدُ والذكريات من الحبيب تُعاودُ

ومنها قوله الذي يصدق على الشيبلي صدقه على المتنبي:

خَيْرُ النوابعِ من أجَدَّتْ ذكرَهُ وتعهَّدتْهُ أقاربٌ وأباعُدُ

وتسالمتُ أن الزعامة حَقُّه في المبدعين مذهبٌ وعقائدُ

(٥) محمد رضا الشيبلي - ديوانه: ٤٢.

شيخنا العلامة: لِيَهْنِكَ أَنْ أَجَدَّتْ ذَكَرَكَ أَقَارِبُ وَأَبَاعِدُ، وَأَنْهَا تَسَالَمَتْ
عَلَى زَعَامَتِكَ فِي الْمُبْدَعِينَ، وَمَا أَحْوجْنَا إِلَى أَنْ نَتَمَثَّلَ فِي هَذَا الزَّمَنِ
الصَّعْبِ قَوْلِكَ فِيهَا:

أَمَّا الْمَذَاهِبُ فَهِيَ شَتَّى لَمْ تَزَلْ لَكِنَّمَا الْوَطْنَ الْمَفْدَى وَاحِدًا!
(٢) بَحْوثُهُ فِي مَجَلَّةِ مَجْمَعِ دِمَشْقَ:

لِلْمَحْتَفَى بِذِكْرِهِ أَرْبَعُ مَسَاهِمَاتٍ وَمَوَادِّ لُغَوِيَّةٍ فِي مَجَلَّةِ مَجْمَعِ اللُّغَةِ
العربية بدمشق، هي:

الأولى: عرض ودراسة لكتاب (بستان الأطباء وروضة الأدباء أو دمشق
في عصرها الذهبي) تأليف الإمام موفق الدين بن أبي الفتح إلياس بن
جرجس المعروف بابن المطران الدمشقي المتوفى سنة (٥٨٧هـ). والكتاب
مخطوطة عثر عليها الشيبني في الخزانة الشريفة العلوية، بعدما تفرقت
وتطرقت إليها الحوادث. تقع المخطوطة في خمس عشرة كراسة بعد أن
فُقد منها عشر كراسات، وهي الجزء الثاني من كتاب (بستان الأطباء...)
نُشرت هذه الدراسة في المجلد الثالث من مجلة المجمع (كانون الثاني
١٩٢٣)، أي قبل أن ينتخب عضواً في المجمع^(٦).

وتتجلى من عرضه للكتاب المخطوط ميزتان:

• خبرته في التحقيق التي تبدت في فهمه الدقيق للنصوص القديمة
وأساليب التعبير إذ ذاك، ومن ذلك المقارنة بين عبارات كل منهما
ودلالاتها.

• حرصه على الأمانة العلمية، إذ بين أن ابن أبي أصيبعة المتوفى سنة
(٦١٦هـ)، أخذ عن سابقه ابن المطران كثيراً من النصوص دون أن
ينسبها إلى صاحبها، ودون أن يشير إلى ذلك.

(٦) ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق - مج ٣: ٢-٨.

الثانية: بحث (تهذيب اللغة ومُلْتَقَطُه للزمخشري)، وقد نُشِر في المجلد السابع للعام (١٩٢٧م). وهو عَرَضٌ ودراسة لما ورد في كتاب (ملتقط التهذيب لجار الله الزمخشري) المتوفى سنة (٥٣٨هـ)^(٧). والمُلْتَقَطُ هذا هو اختيارات لمفردات انتقاها الزمخشري من معجم (تهذيب اللغة) للأزهري المتوفى سنة (٣٧٠هـ)، فبحثه اختيار من اختيار. ولم يُذكَر الكتاب فيما ذكره الزركلي من كتب الزمخشري، كما لم يذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ولا البغدادي في ذيل الكشف ولا هدية العارفين، مما يجعل من كشفه هذا إضافةً إلى المكتبة العربية.

والظاهر أن الشيبني كتب هذا البحث قبل طبع ونشر كتاب (تهذيب اللغة) للأزهري، لأنَّ الزركلي ذكر في أعلامه أنه مطبوع، في حين قال الشيبني: «إنَّه من أمهات الكتب النادرة أو المفقودة»^(٨). ويتبدَّى في هذا البحث حرصه على إحياء الكلم الذي يمكن أن ينتفع به في الأوضاع الجديدة من مثل:

- الأَعْقَاب: خَزَفٌ يُجْعَلُ بَيْنَ الْأَجْرِّ فِي الطِّيِّ لِكِي يَشْتَد. ويمكن استخدامها في مصطلحات البناء.
- المعاجيل: المختصرات من الطرق. وقد يستفاد منها في هندسة الطرق.
- العَوْطُب: أعمق موضع في البحر، والمطمئن بين موجتين. وتصلح لعلم الجغرافيا والبحار. ومثلها: البراغيل: أمواه تقرب من البحر.
- الطَّبَّاع: الذي يحوّل الحديد أدوات حادة، ويمكن استعمالها في كلم الصناعة.

(٧) مجلة مجمع دمشق مج - ٧: ٦٢-٦٥.

(٨) مجلة مجمع دمشق مج - ٧: ٦٢-٦٥.

- المعابد: المساحي، ويمكن مقابلتها لاسم آلة تسوية للطرق.
- الربّاع: الذي يكثر من شراء الربّاع والمنازل، ويمكن الإفادة منها في مصطلحات التجارة والاقتصاد.
- اللعّاعة: لمن يتكلف وضع الألحان على غير صواب، وتصلح لكلمات الموسيقى والفنون.

قد يقال: إن هذه الكلمات مبثوثة في معاجم العربية التراثية! أجل، هو كذلك، ولكن التركيز عليها ونشرها إنما يرمي إلى إظهار غنى معين العربية لمن أراد أن يستقي، وأن دعوى فقر العربية في المقابلات للكلم الأجنبي ليست صحيحة إلا عند من لم يتقصّر ويبحث.

الثالثة: قصيدته في المهرجان الألفي لأبي الطيب المتنبي بعنوان (ذكرى شاعر)، وقد ذكرناها قبل.

وللشبيبي الشاعر مقطوعة شعرية من تسعة أبيات بعنوان (الفيضان في العراق) نشرت في المجلد (١٤) من مجلة المجمع مطلعها:

كفى يا مسقط الوادي اندفاقاً ألا ترعى الجزيرة والعراقا
ولم يفت الشاعر الملتزم أن ينفث بعض هموم أمته إذ يقول فيها:

ألسنا أمّة ضجرت ومَلّت من الباغين رقاً لا انعتاقاً^(٩)

الرابعة: مقالته (الشيخ عبد القادر المغربي، جانب مجهول من سيرته). ونشرت في المجلد الأربعين من مجلة المجمع. ومما جاء فيها: «وكان في طليعة من لقيناهم في دمشق - [أي في أثناء زيارته لها سنة (١٩٢٠)] - الشيخ عبد القادر المغربي والسيد محمد رشيد رضا صاحب جريدة المنار». وكان ثمة مراسلات ومكاتبات بين الصديقين العالمين، (وشبه الشيء

(٩) مجلة مجمع دمشق مج - ٧: ٦١ - وديوانه ١٦٥.

منجذبٌ إليه). وقد اجتمعا ثانية في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، بعد أن انتخب الشيببي عضواً فيه سنة (١٩٤٧). ويبدو أن كلاهما ترك في نفس الآخر أثراً طيباً لا يُمَحَى، جعل الشيببي يصف وفاة المغربي بأنها «مصيبة للمجامع اللغوية العربية، وأنه كان عالماً مجتمعيّاً بالمعنى الصحيح للكلمة»^(١٠). ومن المفارقات اللافتة أن الشيببي كتب هذه المقالة سنة وفاته هو. رحمهما الله.

ثانياً - الشيببي اللغوي:

ليس ما نشره الشيببي في مجلة مجمع دمشق إلا وشلاً مما في جابيته اللغوية والأدبية. فإذا أردنا تعرّف الشيببي اللغوي فلا بُدَّ من تتبّع ذلك في مجمل كتبه، وبحوثه المنشورة منجّمة في مجلة المجمع العلمي العراقي ومجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وفي محاضراته ومدخلاته الغنية التي قدّمها في الندوات والمؤتمرات المجمعية.

إن النظرة المتأمّلة الفاحصة لإرثه اللغوي والأدبي، تدل على أن الشيببي لم يكن لغويّاً فحسب، بل فقيهُ لغوي ومجتهد، ومن كبار حُماة العربية وسدنتها. ويتجلّى ذلك في مواقف وآراء أبرزها:

(١) اطلاعه الواسع على العربية، ومعرفة مصادرها، وفصيحتها، وشواردها وشائعهها ودخيلها. إن المتتبّع للمصادر والمراجع التي ذيل بها مؤلفاته وبحوثه تنبئ عن عالم طُلّعة لَمّاحة، فمصادر كتابه (أصول ألفاظ اللهجة العراقية) تربو على ثمانين مصدراً أو مرجعاً، ومثلها مراجع كتابه (مؤرخ العراق ابن الفوطي)، وكذا سائر مؤلفاته. وليست كثرة مصادره هي الدليل الوحيد على سعة اطلاعه على تراثنا العربي، بل إن أسلوب كتابته لا

(١٠) مجلة مجمع دمشق مج - ٤٠ : ٤٥٢.

يتأتى إلا لمن تَصَلَّحَ من أمهات مصنَّفات المكتبة العربية. وسوف نعرض في بحثنا لعبارات وتراكيب لا تصدر إلا عمَّن تمثل العربية، وكأنه أخذها نديَّة من أفواه القدماء. ينضاف إلى ذلك موسوعيته العلميَّة، فأنت عندما تقرأ له في اختصاص ما، قد تتوهم أنه لا يُحسن غيره، ويكذب وهمك عندما تقرأ له في اختصاص آخر. وما ذلك إلا لغنى معرفة وسعة اطلاع لا تتأتيان إلا لمن (بدل بالصَّحْب الكتابا) لا مَنْ (بدل بالكُتُب الصَّحَابا).

٢) دفاعه عن العربية:

ابتليت العربية في العصر الحديث برهط من الأعداء والخصوم الذين لم يتركوا مناسبة ولا وسيلة للنيل منها والإضرار بها. من هذا الرهط مستعربون غربيون ومستعربون مشرقيون. وكان غرضهم صَرْفَ أبناء العربية عنها وعن تعلُّمها، مُتوسِّلين ومُتسَوِّلين حُججاً وهمية لا يصدِّقها واقع. إلا أنه وقف في وجه ذلك النفر من أعداء العربية جمع طيب من اللغويين العربيين الغيِّر الذين نذروا علمهم وأقلامهم للذود عن لغة البيان والفرقان والإتقان. ومن الطبيعي أن يكون من هؤلاء المنافحين عن حوزتها الشيخ الشيببي. ويتبدَّى ذلك في مواقفه الآتية:

أ- الدفاع عن حروف العربية وهجائها:

تلك الأبجدية التي دعا بعضهم إلى التخلِّي عنها. وكلُّ خرج من عبارة المستشرق (مرغليوث) الذي قدم إلى دمشق قبيل الحرب العالمية الثانية ليجتمع إلى رئيس المجمع العلمي العربي الأستاذ محمد كرد علي، ويطلب إليه بإلحاح التخلِّي عن الحروف العربية والأخذ بالحروف الغربية اللاتينية، أسوة بدول مشرقية سبقت كتركيا وأذربيجان، مدَّعياً أن من أسباب تخلف العرب تَمَسُّكهم بأبجديتهم العربية، ولكنَّ طلب (مرغليوث) رُفِض، فغادر

إلى طهران لعله يجد لشفرته المسمومة محرّجاً، إلا أنه لم يحقق في طهران ما عجز عن تحقيقه في دمشق.

ومما يجدر ذكره أن (مرغليوث) كان موظفاً كبيراً في وزارة المستعمرات البريطانية، وأنه أوفد إلى دمشق وطهران بتكليف منها^(١١). فكان أن تصدّى لهذه الدعوة الهدامة عُصبةٌ من علماء العربية منهم الشيببي، حيث يقول رحمه الله: «فها نحن نرى في صميم أقطار الإسلام وسُرّة بلاد الشرق قوماً مفتونين، أبدؤا صَفْحَتهم للغة القرآن وعَيّة العلم والعرفان، داعين إلى استبدال أحرفها الهجائية بأحرف اللغة اللاتينية [كذا]، أو إلى الاستعاضة بالعامية، مُضمرين من وراء ذلك ما يُستعاذ منه من فساد دخلة وحُبث طويّة وسوء نية، وهيهات يأبى الله ذلك وأعلام الملة وأصحاب القبلة، وكُتِبَ قِيّمة وصحفٌ مطهّرة بأيدي كرام بررة»^(١٢). وبفضله وأمثاله من حُماة العربية ثبتت أبجديتنا العربية الأصيلة وسقطت دعاوى أعدائها.

ب- ردُّ دَعْوَى صعوبة تعلُّم العربية:

مما تعاوره مناهضو العربية للتنفير منها دعوى صعوبة تعلُّمها مقارنةً باللغات اللاتينية، وهي دعوى داحضة، يرد عليها الشيببي بحجة منطقية واقعية، وهي أنه ما من لغة إلا ويعترض مُتعلّمها صعوباتٌ في فهم متنها أو ضبط كتابتها، والعربية ليست في ذلك بدعاً من بين لغات العالم. ويعضد رأي الشيببي ما ذهب إليه بعض المستشرقين المنصفين، إذ أرسل المستشرق الفنلندي (كرسكو) عضو مجمع دمشق مقالاً إلى مجلة مجمع دمشق عنوانها

(١١) سعيد الأفغاني - حاضر اللغة العربية في الشام: ٨٤.

(١٢) (تهذيب اللغة ومُلْتقطه) للزمخشري - مجلة مجمع دمشق: مج ٧: ٦٢.

(نَفْيُ أوهام الأوربيين في صعوبة تعلُّم العربية). وقد تضمَّن المقال مقارنة علمية موضوعية بين اللغة العربية واللغات الأوربية أدباً ولغة و صرفاً ونحواً ونُطقاً وكتابة، وعلى مقاله - عدا علميَّته ومنهجِيَّته - سمات الإحاطة وعمق الدرس وجمال الإنصاف، وهو الذي سَمَّى المشاكل المزعومة للغة العربية بالأوهم الهَرمة، وخلص في مقاله إلى «أن تحصيل اللغة العربية أسهل على الطالب الأوربي من تحصيل غيرها من لغات العالم»، وأنه يُصِرُّ «كلَّ الإصرار على أن آراء الأوربيين نتائج أوهام هَرمة وبوادر خيالات شائخة»^(١٣).

ولا يكتفي الشبيبي بالرد على ظاهر كلام الطاعنين، بل يتعداه إلى الرد على باطنه المقصود فيقول: «لماذا لا يقولون: إننا لا نتعلم العربية لأنها لغة العالم الإسلامي أو لغة القرآن، أو لغة الآداب العربية»^(١٤). ولعله يريد أن يقول: إن دعوى صعوبة تعلم العربية إنما هي كلمة باطل أريد بها باطل.

ج - معارضة دعاة العامية:

قد يسبق إلى ظنِّ من يقرأ عنوان كتابه (أصول ألفاظ اللهجة العراقية) أنه في الدعوة إلى العامية العراقية، في حين أن كتابة هذا دُرَّة نفيسة في الدفاع عن العربية الفصحى، بل إن مقدمة هذا الكتاب تصلح منهجاً علمياً سليماً لدراسة العربية، وإنَّ الأحكام اللغوية التي وردت فيها تفوق بأهميتها سائر ما ذكر في كتابه. ولعلَّ الشبيبي توجَّس خيفة من سوء فهم بعضهم لمضمون كتابه، فنَصَّ في العنوان على ما يلي: «هو بحث تاريخي أدبي في أصول ألفاظ هذه اللهجة، وفي علم اللهجات ووسائل النهوض باللغة العربية، ويلى ذلك معجم بألفاظ اللهجة الشائعة في العراق»، أي إن الكتاب بحث في طبيعة اللهجات لا في

(١٣) سعيد الأفغاني - حاضر اللغة العربية في الشام: ١٨١.

(١٤) أصول ألفاظ اللهجة العراقية: ٧.

الدعوة إليها، وفي وسائل النهوض بالعربية. ومن أظهر مضامين هذا السفر:

- الردّ على مَنْ يدعو إلى المحافظة على اللهجات العامية ويخاف انقراضها، إذ يقول: «فلتتقرض هذه اللهجات الشائعة غير مأسوف عليها، فما فائدتنا من لهجات لا تتسع للتعبير عن مسألة علمية أو فكرة أدبية، وقد كانت وما زالت من جملة عوامل البلبلة اللغوية، فمن الخير أن تتصافر جهودنا على إماتة تلك اللهجات السقيمة، ففي وحدة اللغة ما فيها من الخير والمصلحة، وفي تكاثر اللهجات وانقسامها ما فيه من الضرر والمفسدة، خصوصاً في هذه المرحلة التي تجتازها الأمة العربية»^(١٥).

- استخراج وتحصيل ما في اللهجة العراقية من فصّح الشوارد التي سمّاها نظيره في مجمع دمشق الأستاذ (شفيق جبيري): (بقايا الفصاح) وسمّيها أنا في معجم لي: (فصاح العامية)^(١٦). وهذا العمل يخدم العربية المعاصرة، إذ يدلُّ على الكلمات الفصيحة في اللهجة العامية، التي يتحاشاها كثير من المتكلمين والكتّاب لتوهم عدم سلامتها. على أنه لا تثريب عليهم في استعمالها، فهي عربية صحيحة، ولا يُقلّل استعمالها في العاميات من فصاحتها. وطالما أشار اللغويون القدامى إلى الكلمات العامية الفصيحة فعَلَّ رضي الدين الحنبلي (ت ٩٧١هـ) في كتابه (بحر العوام فيما أصاب فيه العوام). ولا يكاد يخلو مصنّف في التصحيح اللغوي من الإشارة إلى الفصاح في العامية، بل وإلى كلمات أصابت فيها العامّة وأخطأت الخاصة. يؤيد ما ذهبنا إليه أن كتابه يشتمل على كلمات عربية معظمها صحيح، وعلى معرّبات وفق منهج العربية في التعريب، ولها حكم العربيّ.

(١٥) كتابه: أصول ألفاظ اللهجة العراقية: ٦.

(١٦) المعجم من إصدارات مجمع اللغة العربية بدمشق للعام ٢٠١١.

فمن الألفاظ العربية الصحيحة التي أوردتها:

- الإدارة والمدير والمديرية بمعنى تدبير الأعمال ومركزه والقائم عليها.
 - بَطَّل بمعنى تَعَطَّل.
 - البقايا بمعنى المتبقيات، وهي عربية جمع بقيّة، وتعني ما يتبقى على الشخص من مبالغ أو مستحقّات.
 - صانع بمعنى خادم.
 - المِرْكَن: لوعاء الشرب وغيره.
 - القاعد بمعنى الجالس.
 - الدَّعوة: بمعنى الدعاء إلى الطعام.
 - كَمَّل بمعنى أَتَمَّ.
 - الفَرْدَة: ما يُفَرَّد ويُبَسِّط من لفة القماش، وهي من التسمية بالمصدر.
 - الرِّجُل بمعنى الزوج.
 - الخَشْل بمعنى الحُلِّي.
- ومن المعرّبات التي لها حُكْم العربي، الألفاظ:
- الديوان، الزركشة، الساذج، البند...
- أما الألفاظ الدخيلة التي لم تخضع لمنهاج العربية فقد أشار إليها ودعا إلى تجنّب استعمالها مثل (دوشخانة)^(١٧).

د- موقفه الحصيف من المعرّب والدخيل:

من المعلوم أن كل اللغات تتقارض فتغتني كل لغة بما تأخذ، وتغني غيرها بما تعطي. والمقترض في لغتنا إما أن يكون معرّباً أو دخيلاً. فالمعرّب هو ما أخذته العربية ونقلته من لغته الأصلية، ولكن بعد أن أخضعته

(١٧) أصول ألفاظ اللهجة العراقية: ١٥.

لقوانينها الصوتية والصرفية. ولم تخل لغتنا من معرّبات منذ العصر الجاهلي وصدر الإسلام إلى الآن. كما جاء في القرآن الكريم كلمات معرّبة صَنَّفَهَا السيوطي وغيره في كتب خاصة، ومنها الكلمات: فردوس، إستبرق، سجيل... ومثل هذه الكلمات لا تختلف عن الكلم العربي، لأنها جاءت متوافقة مع النظام الصرفي العربي.

أما الدخيل فهو ما يؤخذ من لغات أجنبية، وينطق على صورته فيها دون إخضاعه لقوانين العربية الصرفية والصوتية.

وكلم القرآن الكريم عربي، أو مُعَرَّب صار بتعريبه عربيًا جرّث عليه أحكام العربية وصار جزءاً منها، في حين يبقى الدخيل خارج حَرَم اللغة، لأنه لم يهدّب ويعدّل وفق منهاج العربية، كأن يكون فيه حرف من غير العربية، أو فيه زيادة على عدد حروف الكلمة العربية، أو أنه ابتداءً بساكن أو التقى فيه ساكنان... ولكن ليس في القرآن دخيلٌ ولا أعجمي من الكلم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢].

لا خلاف بين اللغويين في قبول التعريب والمعرّبات، ولكن الخلاف هو في مدى هذا التعريب. فبعضهم يرى أن يُفْتَح باب التعريب على مصراعَيْهِ ودونما قيود بحُجج شَتَّى لا تقوى على الصمود أمام المحاكمة السليمة، لما قد تحمله المعرّبات من مخاطر إذا أطلقت دون ضوابط ولغير ضرورة ماسّة. وبعضهم الآخر يرى أن إدخال المعربات لا يصح أن يتجاوز حد الضرورة، ولا سيما في المصطلح العلمي، إذ الاقتراض اللغوي كاقتراض واستدانة المال، لا يجوز أن يُلجأ إليه، إلا لضرورة قصوى مُلِحَّة، وإلا كان نقيصة.

وقد أدرك الشيبني بحصافته هذه الحقيقة قَبْلنا وعَلَمنا إياها، حيث يقول: «وفي هذا العصر يتحتم على المعنيين بالبحوث اللغوية أن يَحْتَدُوا في النقل

والترجمة عن اللغات الأجنبية حَذْوَ النقلة الأولين من العرب، وأن يفرضوا على أنفسهم التحفُّظ والاحتياط في فتح باب التعريب وأخذ الدخيل الحديث، ولا نشاط رأيٍ من يرى خلاف ذلك، فالأعجمي الدخيل لا يصحُّ تقبُّله في عصرنا هذا إلا عند الاضطرار»^(١٨). ويعلل ذلك بروح الغيور على أمته ولغتها، فيقول: «أما عصورنا الحديثة التي نعيش فيها، وهي عصور التخلف والضعف مادياً ومعنوياً، فهي عصور تميّزت بتسرُّب الأساليب الأعجمية إلى حَمَلَة الأقلام والمرسِّلين، وطما فيها سيلُ المصطلحات الأجنبية على الألسنة، وغرقت اللغة في أمواج تلك الألفاظ الدخيلة على وَجْهٍ يجعلنا نشعر بالخطر الداهم على العربية من هذه الناحية، لذلك لا يجوز التَّسامح أو التَّهاون في فتح باب التعريب على مصراعَيْه، ولا مناص لنا من التزام جانب التحفُّظ والاحتياط لأن الفرق جسيم بين حاضرنا وغابرنا من هذه الناحية»^(١٩).

وأكثر من هذا، فهو يحاول وضع البديل العربي للكلمة المعرَّبة في العامية مثل (الشَّنْقَصَة) بمعنى المكر والإضرار، فيقترح لها (المِحَال) بمعنى الكَيْد^(٢٠). وهو عندما يذكر الكلمات الأعجمية في كتابه (أصول ألفاظ اللهجة العراقية) لا يرمي إلى تجويز استعمالها، بل يرمي إلى التنبيه على عُجمتها والحث على ضرورة استعمال العربي بدلاً منها. فعندما يذكر كلمة أعجمية مثل (النوكرية): هم الخدم والحشم، إنما يريد أن يُستعمل المقابل العربي أو معناه في العربية. وأكثر من هذا، فهو يُسرُّ لاستبدال الكلمات العربية الفصيحة بالكلمات المعرَّبة، ولو كانت من المعرَّبات القديمة، يقول: «وقد استغنى

(١٨) أصول ألفاظ اللهجة العراقية: ١٦-١٧.

(١٩) أصول ألفاظ اللهجة العراقية: ١٦-١٧.

(٢٠) أصول ألفاظ اللهجة العراقية: ٦٧.

العراقيون في العصر الحاضر كغيرهم من أبناء الأقطار العربية عن هاتين الكلمتين أعني (مارستان وخصتخانة) بكلمة (المستشفى)، كما أنهم استغنوا عن (أجزاخانة) بكلمة (صيدلية)، وكفى الله المؤمنين شر الرطانة»^(٢١).

(٣) اجتهاداته اللغوية وسلامة ذائقته فيها:

مما يلفت النظر في تتبع معظم أعماله اجتهاداته اللغوية الرامية إلى تطوير العربية ألفاظاً ودلالاتٍ، وكان يصدّر في كل ذلك عن فهم عميق لطبيعة اللغة ووظيفتها، وعن ذائقة لغوية سليمة. فقد استعمل في كلامه ألفاظاً وعبارات كانت خلافية في زمنها، ولكن المجامع اللغوية أقرت سلامتها بعد واتخذت فيها قرارات علمية معللة أدخلتها حرم العربية المعاصرة، ومثال ذلك:

- كلمة (بمثابة): قال الشيبني: «يعدّ كتاب المباحث لابن سينا، على إيجازه المُخِلّ أحياناً، وعلى ما فيه من تعقيد بمثابة سجلّ لهذه الأحداث»^(٢٢). وكثيراً ما كان يرُدُّها بعض المتشددین، ويرون الصواب أن يقال (بمنزلة أو بمكانة)^(٢٣).

- عبارة (يؤكّد على): قال الشيخ: «رأيناهم يؤكّدون على ضرورة التدرُّج في مراحل التعليم»^(٢٤) وطالما خطأ بعضهم تعدي الفعل بعلى.

- كلمة (استخدام): كان وما زال بعض اللغويين يتجنّب استعمال الفعل (استخدم) ومشتقاته إلا لمعنى طلب الخدمة والعمل من الإنسان

(٢١) المصدر السابق: ٤٨.

(٢٢) كتابه (من تراثنا الفلسفي): ٦٥.

(٢٣) الزعبلوي - معجم أخطاء الكتاب: ١٣٤، ود. أحمد مختار عمر - معجم الصواب اللغوي ١: ١٩٣.

(٢٤) كتابه (التربية في الإسلام): ١٠.

فقط، ويخطئون مثل قولنا: (استخدام السيارة). لكن الشيبني يستعمل هذا الفعل ومشتقاته بمعنى استعمال تماماً، وذلك في قوله: «اقتصرت على استخدام الألفاظ والمصطلحات الشائعة»^(٢٥).

• الشَّيْقُ والشَّيْقَةُ: كثيراً ما تمارى لغويون في صواب هذه الكلمة فخطأها بعضهم، وذهب إلى أن الصواب هو (الشائق والشائقة)^(٢٦). ولكن ذائقة الشيبني اللغوية السليمة لم تأب استعمال هذه الكلمة، إذ وردت في قوله: «يطيب لي تقديم هذه المجموعة الشَّيْقَةُ إلى القُرَّاء»^(٢٧).

أي إنه كان على - علوّ كعبه في اللغة - لا يُغلق الباب دون الكلمات أو العبارات المحدثّة لفظاً أو دلالة، والتي رماها بعضهم بالخطأ والشذوذ. وكان لا يعتمد في ذلك على المراجعات اللغوية فحسب، بل وعلى سليقة لغوية سليمة، وهذا مصداق لما يتناقله لغويون كبار من أنّ (لغة أصحاب السلائق حُجَّة). ولعلّ هذا ما جعل مجمع اللغة العربية بالقاهرة يقرُّ قبول عبارات المحدثين من أهل البيان والفصاحة، وهو ما سمّاه «السَّماع من المحدثين»^(٢٨).

ويعبر عن فهمه لوظيفة اللغة ووجوب تطويرها قوله: «وفي وسعنا أن نقول: إن كثيراً من المواد اللغوية المستعملة في اللهجات العربية لم يهتد الأئمة من أصحاب المعجمات إليها، ففي إجماع الناطقين بالعربية على استعمال لفظة ما حُجَّة قاطعة على عروبتها أقوى من حجج أهل المعجمات»^(٢٩).

(٢٥) أصول ألفاظ اللهجة العراقية: ١٧.

(٢٦) صلاح الدين الزعبلوي - معجم أخطاء الكتاب ١٤/٢. ود. أحمد مختار عمر - معجم الصواب اللغوي: ٤٧٩.

(٢٧) أصول ألفاظ اللهجة العراقية: ٩.

(٢٨) مجمع اللغة العربية بالقاهرة - مجلة المجمع - قرارات المجمع ٨: ٥٦.

(٢٩) أصول ألفاظ اللهجة العراقية: ١٤.

وقد ضاق الشيببي ذرعاً بأولئك الذين يريدون أن يجمّدوا العربية في حدود عصر الاحتجاج. وما أجودَ قوله في ذلك: «وقد حاول بعض المتحذلقين من اللغويين ردّ ما عرّب بعد العصر الأموي، ومَنَعَ الاحتجاج بأوضاع المولّدين بعد المئة الأولى، ولم يجوّزوا الأخذ به، ولكن الحاجة وضرورة الحياة قَضَتْ بخلاف ذلك»^(٣٠).

٤) جهوده في تنمية اللغة العربية وتطويرها:

اللغة - كأى منظومة أو مؤسّسة - بحاجة دائمة إلى التنمية والتطوير لمواكبة الحاجات المتجدّدة لتكلمها في التواصل والتعبير. إن لغة لا تستطيع الوفاء بمتطلبات التجدّد والمعاصرة لهي لغة مكتوب عليها الضّمور فالموت.

وقد أسهم الشيببي في الاضطلاع بمهام تنمية العربية وتطويرها. ولمّا كان اللغويون منشعبين في هذا إلى محافظ متزمت وإلى متساهل مُتراخ، فإن الشيببي وأمثاله من حكماء العربية، وقفوا في منزلة بين المنزلتين، إذ يقول: «ومنهجنا في هذا الباب وسط بين المنزلتين، وهو يقوم على أمرين:

١ - ضرورة المحافظة على تراثنا اللغوي، وخصوصاً في تأليف الجملة وأساليب التعبير.

٢ - العناية بتنمية اللغة وتجديدها وتكثير موادها بطريق الاشتقاق والتعريب، وزحزحتها عن الجمود في هذا الشأن، وذلك ليجد المتعلمون والدارسون والباحثون في العربية ما يجدونه في غيرها من اليسر والسّهولة والمرونة الضرورية للتعبير عن الخواطر والآراء، ولذلك يجب التوفيق بين الأمرين، فلا يُحال بحجّة المحافظة على تراثنا دون التجديد والإصلاح في هذه الشؤون»^(٣١).

(٣٠) المصدر السابق: ١٦.

(٣١) كتابه: أصول ألفاظ اللهجة العراقية: ٧-٨.

وفي ميدان تنمية اللغة وتجديدها، تدخل جهوده في الدعوة إلى تزويد العربية بالمصطلحات العلمية المستجدة، ثم الدعوة إلى توحيد المصطلحات العلمية العربية. وتتجلى جهوده المصطلحية فيما يلي:

- بحث: (توحيد المصطلحات)، وقد قدمه في الدورتين (١٦ و ٢٤) لمؤتمر مجمع القاهرة.
- بحث (تحديد التعريب)، وقدمه في الدورة (١٩) لمؤتمر مجمع القاهرة.
- بحث (المصطلحات العلمية وكتاب الجامع لأشتات صفات النبات)، للإدرسي (ت ٥٦٠هـ). وقدمه في الدورة (١٩) لمؤتمر مجمع القاهرة.
- بحث (تراثنا القديم من المصطلحات: مظانّه ومصادره)، وقدمه في الدورة (٢٤) لمؤتمر مجمع القاهرة.
- بحث (مصطلحات في الأدب والتربية)، وقدمه في الدورة (٢٥) لمؤتمر مجمع القاهرة.
- بحث (الطب والمصطلحات الطبية)، وقدمه في الدورة (٢٥) لمؤتمر مجمع القاهرة^(٣٢).

ومما يزين جهوده اللغوية التي ذكرنا آنفاً شجاعةٌ وجرأةٌ علميةٌ وأدبية ينطق بها أكثر من شاهد فيما قدّمنا من أقواله وبحوثه.

لحق - الشبيبي بين السياسة واللغة:

ثمّة شبهةٌ في سيرة ومسيرة كل من رئيس مجمع بغداد الشيخ الشبيبي، ورئيس مجمع دمشق الأمير مصطفى الشهابي، فكلاهما - رحمهما الله - عمل في الإدارة والسياسة واللغة. وقد سئل الشهابي مرةً: كيف استطاع أن

(٣٢) مجمع اللغة العربية، موجز عن تاريخه وإنجازاته ٨: ٢ [عن المكتبة الشاملة].

يوفق بين أعماله السياسية والإدارية في الدولة وأعماله العلمية واللغوية والأدبية؟ فكان جوابه أن الجمع بينهما ممكن عندما ينظم الإنسان وقته ويحسن استغلاله. وبالقياس إليه «إن الميل إلى الأدب طَبَعٌ فيه، والميل إلى السياسة تَطَبُّعٌ، وكلما تصادما غلب الطبع على التَّطَبُّع». (٣٣) ونقدر أن هذا القول يصدق على الشيخ الشيبلي، على أن (أهل مكة أدرى بشعابها).
إن قامة عالية جمعت بين رتبة الاجتهاد في اللغة، وشمائل النباهة والشجاعة والصدق والغيرة اللامحدودة على لغة أمته وثقافتها لهو حَرِيٌّ بأن يحتفى به أيما احتفاء، وأكْرَمُ بوطنٍ يعرف أقدار رجاله.

* * *

المصادر والمراجع

- أصول ألفاظ اللهجة العراقية - محمد رضا الشيبلي - مطبعة المجمع العلمي العراقي (١٣٧٦-١٩٥٦ م).
- الأعلام - الزركلي - دار العلم للملايين - ط ١٥ - بيروت (٢٠٠٢).
- ألوان شتى - مجموعة شعر - طالب الحيدري - تقديم الشيخ محمد رضا الشيبلي (١٩٤٩ م).
- تراثنا الفلسفي - محمد رضا الشيبلي - مطبعة العاني - بغداد (١٩٦٥ م).
- التربية في الإسلام - محمد رضا الشيبلي - مطبعة المجمع العلمي العراقي (١٩٥٩ م).

- حاضر اللغة العربية في الشام سعيد الأفغاني - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة (١٩٦٢م).
- ديوان الشبيبي - جمعية الرابطة العلمية الأدبية - القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٩٤٠م).
- ديوان الشريف المرتضى - تح رشيد الصفار - تقديم الشيخ محمد رضا الشبيبي - دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه (١٩٥٨م).
- الشذرات - مصطفى الشهابي - دار الكتاب الجديد - بيروت (١٩٦٦م).
- فهارس مجلة المجمع العلمي العراقي - حكمت توماشي - مطبعة المجمع العلمي العراقي (١٩٦٨م).
- المباحث اللغوية في مؤلفات العراقيين - كوركيس عواد - مطبعة العاني - بغداد (١٩٦٥م).
- المجمع العلمي العراقي - نشأته أعضاؤه أعماله - عبد الله الجبوري - مطبعة العاني - بغداد (١٩٦٥م).
- معجم المؤلفين العراقيين - كوركيس عواد - مطبعة الإرشاد - بغداد (١٩٦٩م).
- وقائع مؤتمر مجمع اللغة العربية - محمد رضا الشبيبي - (من ١٥ / ٢ / ١٩٦٥ - ١ / ٣ / ١٩٦٥) - بغداد (١٩٦٥م).

الدوريات:

- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج ٣ (١٩٢٣).
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج ٧ (١٩٢٧).
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج ١٤ (١٩٣٦).
- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج ٤٠ (١٩٦٥).